طومان باى

آلف هذا الكتاب الدكتور عبدالمنعم ماجد

قبل أن أقدم هذا الكتاب أقول كلمة تخالف المتعارف عليه فى شأن المماليك. فالمؤرخون إلا ندرة، والناس أيضا، يسلكونهم فى سلك الغزاة ويحسبونهم على مصر دخلاء غرباء، والحقيقة، عندى، غير هذا فالمماليك فى البداية أطفال خطفهم تجار الرقيق فى العصور الوسطى فهم لم يغزوا مصر ولم يشهروا فى وجه أهلها سلاحا بل دخلوا مقهورين خائفين يهولهم المجهول. ثم نشأوا فى مصر وعاشوا عليها، وبها، ولها. ولاؤهم لها وحدها حين يكون ولاء المصرى، الصريح النسب إليها، مقسما بينهما وبين أب وأم وأسرة..

ولكن المماليك كانوا يفتقدون الأب والأم والأسرة فتركز حبهم فى مصر.. لايعرفون غيرها.. وحين شبوا وانخرطوا فى سلك الجندية حاربوا تحت راياتها.. ومن واتاه الحظ منهم وولى الحكم انطلق من مفهومها هى ومن منظورها هى فحارب «قطز» و«بيبرس» هولاكو القادم من المنطقة نفسها التى ولد فيها المماليك ولكن مصر وإن لم تكن لهم، مسقط الرأس، فهى فى وجدانهم ووعيهم، مرفع الرأس، ومن هنا استماتوا فى الدفاع عنها مسقطين هولاكو وأمثاله من حسابهم، ومن التاريخ.

لقد عرض سليم الأول على (طومان باى) حكم مصر والمال والجواهر ولكنه أبى وهو يعلم عاقبة الرفض. كان طومان شابا يروق العين، فى التاسعة والعشرين من عمره حين خاض ضد سليم موقعة الريدانية وظل يحاربه من شارع إلى شارع حتى انتهى إلى باب زويله.. وحين قرر سليم الأول شنقه وتعليقه على باب المتولى وهو لقب طومان باى فى الحياة وبعد الحياة.. لم يتخاذل ولم يرجع عن قراره ولم يتنازل عن كبرياء استمده من بلد الفراعين والسنين وآثر أن يموت نبيلا فماذا تكون الوطنية أكثر من فداء الروح والوطن؟

إن شهادة الميلاد ليست السند والمستند الوحيد.. إن المحبة، عطاء وفداء والمتصوفة يعرفون المحبة بأنها «بذل المجهود».

وقد بذل طومان باى وجاد وفدى واستشهد فى النهاية. وما أجل المفدى والمفتدى.

من أجل هذا ينزل طومان باى من نفسى، مصرية، منزلة خاصة.

قد يقول قائل وماحكم الغارات والشطحات التى اقترفها المماليك؟ فأقول إنها التربية العسكرية التى نشئوا عليها بما تورثه من التهجم والغطرسة يضاف إلى رغبتهم فى الامتلاك والإثراء تعويضا عن عقدة النقص التى يحسون بها.

ولكنهم على الجانب الآخر كانوا حين يخلعون الألقاب العسكرية على أنفسهم كانوا يسمون المصريين «أولاد الناس» لإحساسهم الطاهر والباطن بعراقة الشعب المصرى. إن المماليك كانوا يدرجون من يولد لهم فى مصر فى هذا اللقب فيطلقون عليه «ابن ناس» تلهفا على «الجذرية» و«العراقة» ونحن اليوم نسمى نبيل المسلك والشارة والعبارة: «ابن ناس».

***

ومن المفارقات فى هذا الكتاب أن (سليم) بعد أن شنق طومان باى، علقه على باب زويله ثلاثة أيام ثم أنزله فغسله القاضى وكفنه ودفنه وهنا أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه.

يُسمَى ويذبح.

الآن نأتى إلى كتاب «طومان باى». ألف هذا الكتاب الدكتور عبدالمنعم ماجد استاذ التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس، يتألف الكتاب من سبعة فصول يستهل ببحث أصول طبقة- المماليك فى مصر- ويبدأ الفصل الثانى أو يبدأ الكتاب بالسلطان طومان باى.

يقول المؤلف (ولقد تمنع طومان باى عن قبول السلطنة مدة خمسين يوما. إلا أنه قبلها بعد ذلك، تحت ضغط رجال الدين فى مصر وبخاصة ضغط عالم وشيخ كبير منهم، اسمه «أبوالسعود الجراحى». كان من مشايخ الصوفية الذين كانت لهم مكانة خاصة لدى سلاطين المماليك، بحيث أن زمنهم هو زمن كبار المتصوفة فى مصر مثل: أحمد البدوى والشاطبى والشاذلى وابى العباس المرسى وغيرهم.

كان للدين سلطان فعال على الحكام حتى أن رجال الدين المصريين كانوا يأتون بالأمراء المماليك كما يقول ابن إياس، ويجبرونهم على وضع أيديهم على مصحف شريف، يحلفون عليه أنهم سلطنوه لن يتآمروا ولايغدروا، ولايثيروا شغبا، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة.

وهم الذين ضغطوا على طومان باى حتى يقبل السلطنة لما توسموه فيه من العدل والخير.

لقد بلغ من عظم دور رجال الدين أنهم أصروا على اختيار الحاكم وعدم استئثار المماليك بتعيينه.

وهو كما يقول الدكتور«عبدالمنعم ماجد» مبدأ خطير فى تقاليد مصر الإسلامية.

وقد زكت الأيام اختيار علماء الدين، طومان باى، فقد أجمع ابن إياس، وابن زنبل على أن طومان باى كان دينا صالحا، خيّرا فاضلا.. وكان يملك ناصية اللغة العربية لأنه عاش فى عصر، تمصر فيه المماليك وتكلموا العربية بل العامية المصرية.

وكان طومان باى شديد الولع بالآداب والعلوم، مغرما بقراءة التواريخ والسير، شاعرا...

وكما اختاره علماء الدين، بايعه العلماء وبايعه القضاة إذ كانت بيعتهم ضرورية لتوليه السلطنة.

إنه إيمان مصر بالسلطة الروحية، والسلطة القضائية.

وتراوحت الحالة الاقتصادية فى عصرهم بين التدهور والازدهار ولكن يسجل لمصر ولهم، بلوغ الفنون الإسلامية ذروة لم تبلغها فى مكان آخر، وأزدهار الصناعات الكثيرة بشكل لم يعرف من قبل كما يقول المؤلف مثل تطعيم المعادن والجواهر. أو ماكان يطلق عليه «التزميك» أو «التكفيت» وهو صناعة دقيقة. حتى أصبح للقاهرة كما يقول المؤلف أسلوب خاص فى صناعة الأوانى النحاسية كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج وكذا صناعة السروج التى كان لها سوق خاصة، وصناعة السجاد التى بلغت غاية الرقى، وصناعة الزجاج، وإن كان أشهر الصناعات على الإطلاق صناعة الأقمشة التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماة «طراز» أو المصانع الأهلية التى يملكها الأفراد وقد كثرت هذه فى مصر وشملت معظم مدنها، حتى أن أنواعا من الأقمشة نسبت إلى مدنها وقراها يقول المؤلف: أوليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك، من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك، مثل: دكاكين وحوانيت ومخازن، وقياسر وخانات ووكالات وفنادق.. وكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان.

وقد توافرت العملة الأجنبية فى مصر وإزدهرت الصرفة التى كان نظامها يوجد فى مصر قبل المماليك (بحيث نسمع بكلمة «حوالة» التى تصرف من قبل السلطان)، وتقبض فى يوم معين، أو «صك» وهو التعبير الاصطلاحى المتداول فى جميع أنحاء الدنيا إلى الآن ليعنى شيك الصرف Cheque .

كل هذا إلى أن عرف طريق رأس الرجاء الصالح ثم تعاقبت على مصر الأزمات حتى الزلازل عرفتها مصر ذات الطبيعة الهادئة السهلة. ومن الطريف أن (على بن محمد الجزار) كتب رسالة اسمها (تحصين المنازل من هول الزلازل) يبين فيها أسباب وقوع الزلازل فيرجعها على الخصوص إلى التجاهر بالمعاصى.

وهو سبب غير علمى ولكنه وارد عند الوجدان الدينى فى شعب حضارته دينية.

وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أطبقت المحن على الشعب المصرى، حين كان السلطان الغورى ينعم بعرقه الذى يصب فى خزانته ذهبا.. حتى حين خرج إلى حرب سليم العثمانى، أخذ الأمر بخفة بل سمى خروجه (تجريده) لا حملة..! وخرج والخطر يتهدد البلاد فى موكب! (تتقدمه الأفيال مزينة بأنواع الزينة، والمباخر وتفوح منها رائحة البخور، وصحبته المغانى، كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر، المستعملة فى المواكب الرسمية من ذخائر الملوك السابقين، مثل السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر، حُملت على خمسين جملا.. ولم ينس بذخه فوضع فى أصابعه الخواتم كما يقول ابن إياس الياقوت والفيروز والزمرد. وفى أثناء سفره فى الشام كان يحتفل بوصوله إلى كل بلد فزينت له دمشق سبعة أيام زينة حافلة ونثر على فرسه الذهب وفرش تحت حافره بساط الحرير. كما أقام له جان بردى الغزالى باشا أمير حماة احتفالات أعظم من احتفالات دمشق أما خاير بك أمير حلب فقد حمل المظلة فوق رأسه وهو بعينه الذى خانه فى موقعة مرج دابق وانضم إلى سليم).

أقول آه ياحبيبة

وتدفع مصر الثمن مرتين: ماديا من مالها ومعنويا.. محنا ومكابدة طويلة مريرة.

ويبدو أن الغورى ليس وحده فحكام الشرق يولعون بالمواكب ومن عجيب أمرهم أنهم يأمرون بها ثم يصدقون أنفسهم ويحسبونها محبة من الناس والناس تمقتهم. لقد كان سليم عدو مصر الأكبر ومع هذا عندما دخل القاهرة، أمر الأهالى بتعليق الثريات!!

ويبدو أن القاهريين خافوا شكله وتفادوا بطشه فقد وصفه ابن إياس كما وصفه «باولو جيوفيو» Paolo Giovio بأن (له وجه كالح وجبهة ضيقة، واسع العينيين، وأنفه كبير وافر، وله لحية سوداء، حلقت حتى الذقن، وشنبه بارز، وله عنق قصير «أقنص العنق» ومكرفس الأكتاف على رأسه عمامة صغيرة. وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة إذ كان فى أثناء ركوبه، كثير التلفت).

ويبدو أنه كان هناك سباق بين ابن إياس وبين فنانى خيال الظل فى وصف سليم حتى أن «سليم» جمع ستمائة من هؤلاء الخيالين وأخذهم معه عند مغادرته مصر للبقاء فى تركيا.

إنه خوف الغازى من مصر حتى وإن كسب معركة.

إنها مصر حتى إذا خسرت معركة

لقد جمع سليم من مصر مارأيته بعينى فى متحف استامبول وتسمرت عينى تجمعه فى نظره ثم لاتناله يدى. أقصد اليد المصرية تحت أى اسم من الأسماء ليصل إلى متحف الفن الإسلامى.

يقول ابن إياس (جمع سليم جميع الذهب والفضة من مصر فحينما خرج منها خرج ومعه الف جمل محملة مابين ذهب وفضة.. وكان أكثر مانهب من القلعة أو قلعة الجبل، جبل المقطم التى كانت قصر سلاطين المماليك بالقاهرة، وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون بحيث اصبح غناها منبعا للخيال فى قصص الف ليلة وليلة.

لم يترك سليم فى القلعة شيئا لم يأخذه منها وحتى رخامها وأعمدتها لاسيما تلك التى فى الايوان وهى قاعة الاستقبال الرسمية مما لايوجد مثيله فكان سليم يأمر بوضع الرخام فى صناديق خشبية ليشحنه إلى استامبول!!.

يضاف إلى ذلك ماأخذه سليم من بيوت الأمراء قاطبة والأعيان بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصعيد، وأبوابا مسبوكة من حديد بصناعة بديعة وحتى آثار النبى ومفاتيح الكعبة وأبوابها التى كانت بمصر ومسجد الامام الشافعى حتى هذه المقدسات لم تسلم منه. هذا غير الخيول والنجائب.

بل نقل سليم صناع الحضارة الفنانين والعلماء ومهرة الصناع...

إنه بهر الغالب بمصر. إنه فى قرارة نفسه يعلم أنه، دونها، بكثير.. أنه ذرة تراب.

لقد انقض سليم حتى على المعلم عبدالرحمن بن طبيلة الذى كان حاذقا فى إنتاج الفروج أو معامل الدجاج والأوز.

يقول المؤلف (لانشك فى أن هؤلاء هم الذين بنوا للعثمانيين أجمل عمائرهم الإسلامية وأروعها لاسيما جوامعهم ومنائرهم).

لقد نشروا فى استامبول الحرف والصناعات حين بطل من مصر كما يقول ابن إياس نحو خمسين صنعة.

ولم يلبث سليم أن اصيب بحمرة عذبته ومات فى ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠ وحقت عليه كلمة الرسول الكريم (من أرادها بسوء قصمه الله).

ولحق به خاير بك، أو خاين بك بعد عامين وبالمرض نفسه فقد توفى خاير سنة ١٥٢٢ وقيل إن الناس كانت تسمع صراخه وهو فى قبره.. وحتى لو لم يحدث هذا فإنها رغبة مصر فى عقابه وكراهيتها له.

ولكن مصر نبيلة حتى فى الكره، لقد كانت كما يقول المؤلف أول من استخدمت البارود كطاقة طوعته فى الحروب إلا أنها لم تستخدمه ضد المسلمين بأى حال، حتى فى أيامها الحرجة فى صراعها مع العثمانيين، على أساس أنه سلاح محظور استخدامه ضد المسلمين بسبب طاقته التدميرية القوية، بينما العثمانيون لم يترددوا فى استعماله ضد المسلمين وغير المسلمين.

لم تذهب ألوف السنين الحضارية هدرا فاكتسبت مصر الصفة الإنسانية، فى قوتها، والقوة تغرى بالتجبر.

وفى محنتها تركب الصعب

ولكن مصر فى الحالين كانت نبيلة

والحضارة هى الفروق.